مسعد والبارودة

وليد رباح

قصة قصيرة

فجأة نبت من الفراغ ... لوى عنان فرسه واتجه نحو البيت ... طرق بعنف فلم يفتح له أحد ... وعندما ولجه قسرا طالعه وجه أمه محنطا مثل تمثال مرمري أخرس ، بكى على صدرها وشمّه بعنف ، لكنها ظلت ممددة تنبع من حواف ثوبها رائحة زكية نفاذة .

تفقد جسدها علّه يعثر على خرق مفتعل فيه لكنه توقف فجأة ... وهنا أدرك ان الموت نهاية كل شيء حي ، فقام بتكفينها ودفنها على الطريقة التي يراها العرف لائقة بموت عظيم ... ثم عضّ بأسنانه على ثوبه الفضفاض وحمل بارودته وأطلق ساقيه للريح .

منذ زمن ... والناس تحشو بواريدها بالملح الذي يقتطعونه من خبز الاطفال ، كان مسعد فلاحا ينام على أرض غرفة محرّك الماء الذي يسقي البياره ، وعلى ذمة اصحاب الالسنة الطويلة ، أحب مسعد « تفاحة » تلك التي كانت حمرة خديها تصرع شبان القرية ... وعلى ذمتهم أيضا ... ان أباها طلب مهرا لها ثلاث ليرات ذهبية وقطعة من أرض أبيه ، أما الليرات فوعده أبوه بتدبيرها ، لكن الارض كانت عزيزة ، فاحتدم الخلاف بين الاب وابنه الى أن كان يوم عاد فيه مسعد الى البيارة ليرى جثة والده تعوم فوق مياه البركة ، صرخ واستنجد ، لكن الناس رفضوا أن يصدقوا موت الرجل الا على يد ابنه ، وانتقلت العدوى الى « تفاحة » فداست على قلبها وحلفت يمينا ان تتبرأ من حب مسعد أمام أمه ، وهكذا انتقلت الجرثومة الى أمه فعزمت على الا تكلمه مدى العمر .

قال شبان القرية : يا جماعة ، مسعد شيخ الشباب ، ولا يعقل أن يفعلها . وقال آخرون بأن الحب أعمى ، وفئة ثالثة قالت ان الذي يحمل روحه على كفه ويخترق المستعمرات يربأ أن يفعلها . وسمع الذين يعرفون مسعد ، فوضعوا أصابعهم على شفاههم وطلبوا كتمان أمر مسعد والبارودة ، فالانكليز يجوبون القرى بحثا عن الثوار ، والكلمات تنقل مع الريح الى المندوب السامي فيقص عمره ، واحتد عدد من الحاضرين فقالوا مسعد رجل ، فلنقاطع كل من يحكي على مسعد ، أما هو ... فقد كان في القرية يبحث عن ملجأ يأوي اليه ، وعندما يئس اتجه نحو البيت وحفر رماد الطابون واستلها ثم تمنطق بالسلحلك ويمم وجهه شطر الفراغ..

* * *

آه أيها الليل المرغ بالدفء ، فليأكل الصقيع وجهي ، لكن النسيم اذا ما داعبه سوف أقصه بهذا الخنجر نصفين .

جلس على تلة تشرف على القرية ... خفتت الاضواء حتى لم يعد يميزها ، داعبت أنفه رائحة طوابين القرية فسحت من عينه دمعة مسحها بعنف ونهض .. ثم عاد ليجلس بعد أن قرر معرفة موقع بيتها ، لكنه لم يستطع تمييزه ، فبكى ...

سأل نفسه ان كان يستطيع العودة ليملأ جرابه بالخبز لايام ، لكن وجه أمه المتجمد ساعة رحيله أوقف فيه هذا الخاطر .

قال لها وحياة عمري يا يمّا ، هذا زور وبهتان ، لكنها ظلت صامتة ، قال لها لقد فقدت زوجك فلا تفقدي ابنك يا يمّا ، لكنها ظلت صامتة . حدثها عن طفولته وعن حبها له وعذابها من أجله علّه يستميل قلبها لكنها ظلت صامتة ، ثم يئس عندما تذكر فجأة يوم جاؤوها بأخيها ملفوفا بقطعة خيش وقد قدّ جسده بالسكاكين فقالت : يا رجال وين النخوة ، وتقدمت صفوف تسعة جاؤوها باثنين من مستعمرة مشمار ، حدث نفسه بأن قلبها كالصخر ولن ترقّ أو ترجع عما عزمته ، ثم قبّلها في جبينها فراى خطوطه تتقوس اشمئزازا ورحل .

الى أين ، فلأدفنها نهارا واعود اليها في الليل ، فرجال الشرطة مثل الجراد ... والطعام ، آه من هذا البطن الدنس ، لو كان بامكاني بقره ما قصرت . وتفاحة ... ما أقسى تفاحة يا مسعد ، لم تصدق رغم اني حلفت لها بخديها ...

جفّ حلقه واشتاق لبعض الماء .. عوّل أن يسير الى قرية مجاورة ويبيت في المضافة ، لكنه خشي الوشاية فعدل . أحسّ بالجوع فشتم نفسه ، حاصره البرد فاحتدّ وأرخى قبضته في الهواء ... انثالت عليه

تفاحة قبل النوم فلعنها ... تذكر أمه فبصق ... رأى وجه أبيه فلعن الدنيا ... ثم قام من فوره يخبّ في العتمة .

لم يسر طويلا ... عاد وكأنه قطعة من التلة ... فلتفارقني روحي ان فارقتك يا تفاحة ، وعندما يهدأون ستصبح خطواتي واسعة ، فاقتحم البيت واحملها على ظهري وأغادر ...

وفي الهزيع الاخير أخذت خطواته تقترب من البيت ، وبخفة صعد الى سطحه . ومدّ بصره نحو ساحته ، وهناك رأى الاجساد مصفوفة مثل عنبر العساكر ، اصطدمت عيناه بوجهها ، حاولت أن تصرخ لكنه همس : أنا مسعد يا تفاحة فلا تجزعي . تحركت أمها فأطبق شفتيه ، أشارت له أن يغادر فاستعطفها بأن بسط لها كفيه ، تسللت من مكانها وارتقت السلم اليه ، لماذا جئت الى هنا ؟ يا تفاحة ، وحياتك ما عملنها ، ليغضب مني كل الناس ولتقاطعني امي لكني أحتاج اليك . ما هكذا يفعل الرجال يا مسعد ، ان أفاق اخوتي قطعوك . كل شيء يهون الا رضاك يا تفاحة . بدأت أشك في شهامتك التي تحدث عنها الناس . لكني أبيع كل شهامتي لقاء اقتناعك ببراءتي ، لم افعلها يا تفاحة ، لقد أصبحت كالكلب الاجرب ، كلهم يطردونني ويتفاضون عن كل ما قدمت لهم . لقد سمعوك تهددة قبل موته بيوم واحد . كانت ساعة شيطانية . وعندما أقدمت على فعلتك كانت ساعة شيطانية ؟ يا تفاحة ، ابي قطعة مني ، فكيف أقصّ لحمي بيدي ، اني احبك فلا تخذليني ، وأحبك مثلما تحب الشجرة العطشى قطرات الماء . لكني لا أحتمل رؤية الناس وهم يقولون قد تزوجت من قاتل أبيه . يا تفاحة ، وحياة حبك بريء أنا ... غادر والا قطعوك . سمعا ثناء شياه فقالت له طلع النهار ... قال لها سأغادر ، لكني احلف لو ان كل مسامير الدنيا قد غرست في جلدي فلن انساك ... رأى دمعة على خدها لمعت رغم سواد الليل ، ثم انجهت نحو السلم وأخذت تهبط بتؤدة .

* * *

يا يمّا المشوار طويل والدنيا لا تعرفني . وقد سدت كل المنافذ في وجهي حتى أنت . ضحكت بسخرية ولم تجب . انسحب الى الطابون وحمل رزمة من الخبز الساخن وغادر ... وصل الى البيارة والعصافير تحطّ على حواف البركة ، فلأظل هنا أفلح الارض وأزرعها ، وفي الليل أغوص على مستعمرة مشمار ... يا ويلي .. ان غادرت جفّ الزرع ويبس البرتقال وماتت الحياة ، وان بقيت قالوا تنعم برزق ابيه ، أيتها العصافير دليني على الطريق ، لكن العصافير لم تدله ، وبقيت تزقزق فرحة بطلوع النهار .

* * *

بكت أمه فمسحت تفاحة دمعتها ، قالت لها : يا ولدي جاءني جائعا فما أطعمته ، وأتاني مغرورا فما دفأته ، بعد رحل يا تفاحة ، لكنه سيعود اليّ وفي جعبته ما يشفي غليلي .

نظرت اليها تفاحة مشفقة ... قالت : كثيرا ما حدثني قلبي أن مسعدا مثل شعاع الشمس بريء ونظيف .

قالت أمه : انما فعلت ذلك لأبعث فيه العزم وأحضه على معرفة اليد التي امتدت الى أبيه .

... غصّت ، انحبست الكلمات في حلقها . حاولت أن تتكلم لكنها لم تستطع ، بكت بحرقة ، ثم أنها لما هدأت قليلا ضربت خديها براحتيها مرات ومرات حتى استحالتا قطعة من الحرير الهندي المورد ، وانسحبت من الدار تتعثر وشفتها السفلى ترتجف بعنف .

* * *

قال أصحابه : قد اختفى مثل كومة ملح يقصفها الرذاذ ... أخبار تقول بأنه احترف زيارة المواخير في المدن لا يخرج منها أبدا .. ذهبنا الى أحد المواخير لكنه لم يكن هناك ... أخبار أخرى تقول انه في القرية ... بحثنا عنه فلم نجده ، الولد خضر الذي اصطلح الناس على تسميته مهبولا قال لنا مرة انه هنا ، وأشار الى قلبه ، رمت القرية أجدع شبانها الى الموت .

طرق الباب بتؤدة ففتحت له امرأة عجوز ، القت اليه نظرة عجلى ، كان السلحك يتدلى من وسطه ويصطدم بفخذيه ، وعين البندقية شاخصة نحو السماء ، أما لباسه فقد لوثته الوحول وتدلت منه المزق والشرائط . قالت له مرحبا بالثوار يا ولدي ، يا ويلي ، الآن قلب أمك مثل النار . دخل الى غرفة يعوزها كل شيء .. رمى بنفسه على حصير ومد ساقيه ، جاءت اليه وكأنها تعرفه منذ القدم ... سلم لها قياد البارودة والسلحك . ثم أن يديها امتدتا الى نعله فخلعته ورمت به الى عتبة الغرفة ، وتسللت أناملها الى قميصه تنكّ أزرّته بصبر وأناة ، نهضت وعادت بقمباز رمته اليه وقالت : البس ، أنت في النهار حارس لمحرّك الماء والبئر وفي الليل لا أعرفك ولا تعرفني ، ضحك بوهن ثم حطّ مرفقه تحت رأسه ومضى في نوم عميق .

افاق والشمس تطل على رؤوس الاشجار ، بحث عنها في كل موضع فلم يجدها ، ارتاب قليلا ، لكن وجه البندقية أخذ منه الريبة ، وعند المحرك وجد ناسا ومنكاشا وحذاء مطاطيا لا يخترقه الماء ..

انساب الماء الى جذور الشجر عبر القنوات كافعى تسعى دون توقف ، وعندما انتصف النهار كان عرقه على القمباز يرسم غيوما بيضاوية اخذت شكل الخرائط .

عاد الى الغرفة .. وهناك وجد رغيفا من الخبز وشيئا من الزيتون الاسود ... جلس فوق الحصير

واخذ يمضغ بتؤدة ، سمع صوتها تناديه فأصغى : « قد اتفقنا على أن تكون حارسا لا مزارعا .. » . ضحك... وحياتك لأخلي لك البيارة جنة . ضحكت عن أسنان مهترئة وقالت : جنة هنا وجحيم هناك ، وأشارت الى مستعمرة مشمار .

بزغت أعين النجوم ما بين الغيوم الرمادية . ثم طلع القمر حييا يسير فوق صفحة السماء ببطء ... انثالت عليه « تفاحة » مثل النعاس ، جاءته وفي يدها السلة تحوي دجاجا مشويا وبضعة أرغفة . جلسا عند البركة فأطعمها وأطعمته ، مدت أصابعها تتحسس ذقنه. ومد اصابعه فحلل شعرها الفاحم ، وعندما انتقلت يده الى عنقها فرّت كغزالة ، لحقها ، لكنها طلبت اليه بحزم ان يقف ، وقف مبهوتا ، وحياتك لأبني لك غرفة وسط البيارة ونعيش أحسن من المندوب السامي . يا ولد يا شيطان ، تحاول أن تغريني لتمسكني . أحبك يا تفاحة مثلما أحب المطر .. تقدم اليها فصاحت وحذرته أن يقف ولا يضايقها .. أفاق على صوت العجوز وهي تقول قد قرب الليل أن ينتصف ولم ترحل ... ابتسم لها ... نظر الى عين السراج فرآها تحترق ... أضاف اليه بعض قطرات من الزيت ثم ودعها ومضى ... وعندما امتزج الوقت بصوت الطلقات البعيدة ضحكت حتى كادت تستلقي على الحصير ثم نامت .

* * *

حدثتني احدى عجائز القرية قالت :

لما اختفى مسعد ذبلت خدود تفاحة ، جاءها عمها يوما وقد تأبط عريسا غنيا له ثلاث بيارات .. رفضته تفاحة ، قالت امها البنت لا ترغب في الزواج فلا تجبروها ، حلف والدها بشواربه ان لم تقبل فسيطلق امها ويجعلها تشحذ في الازقة ، احتدم الخلاف فاعترف صغير اخوتها انه قتل والد مسعد كي لا تتزوج من ابنه. سمعت تفاحة فطار عقلها ، ولم تنتظر حتى يطلع النهار فطافت في القرية وقد حلت شعرها ولوحت بزنارها وهي تهتف : مسعد بريء ... قتله أخي يا ناس ... مسعد بريء . ضربوا على أكفهم ... واجتمعت النساء حلقات في البيوت يتحدثن عن جنون تفاحة، ولم ينتصف النهار ، حتى عثر الناس على جثتها غريقة في البركة التي قتل بها والد مسعد .

* * *

قالت له العجوز : قد أجدت الفارة . ضحك وقال: غدا سترين . قالت له : يا مسعد ، لماذا تغير اسمك ولا تحكي لي قصتك ؟.. وقف مبهوتا ، قال لها : كيف عرفت اسمي ؟ قالت : ول يا مسعد ، قصتك وتفاحة تخترق الرؤوس مثل الرصاص ، لكني يا بني أحمل لك أخبارا مزعجة . لقد ماتت تفاحة وهم الآن يعدّون لدفنها . ابتسم بسخرية وقال : لكننا نبعد عن تفاحة ثلاث قرى . قالت : أغيب في النهار فأتلقط أخبارها في كل يوم ... نظر اليها فرأى علامات الجد على وجهها ، رقصت شفته السفلى ، غضب .. ابتسم .. ضحك .. وضحك .. ثم اعتلى ظهر الفرس ووكزها وطار ..

كانوا يهيلون التراب عليها .. تراجعوا لما رأوه .. نظر الى وجه أبيها واخوتها فغضوا من أبصارهم ، رأى الدموع في عيون النساء لا تسقط .. ثم لوى عنان فرسه واتجه نحو البيت .. طرق الباب بعنف فلم يفتح له أحد .. وعندما ولجه قسرا طالعه وجه أمه محنطا مثل تمثال مرمري أخرس ، بكى على صدرها وشمه بعنف ، لكنها ظلت ممددة تنبع من حواف ثوبها رائحة زكية نفاذة .

تفقد جسدها علّه يعثر على خرق مفتعل فيه لكنه توقف فجأة .. وهنا أدرك ان الموت نهاية كل شيء حي، فقام بتكفينها ودفنها على الطريقة التي يراها العرف لائقة بموت عظيم .. ثم عضّ بأسنانه على ثوبه الفضفاض وحمل بارودته وأطلق ساقيه للريح .

تونس الخضراء

صدر حديثا

التراث الفلسطيني والطبقات

تاليف

علي الخليلي

« غاية هذه الدراسة ، في الاساس ، مساهمة في تكريس التراث الشعبي العربي الفلسطيني داخل نمو الثورة وتصاعدها .. واداة الدراسة المركزية هي الامثال الشعبية الفلسطينية باعتبارها جزءا اساسيا من التراث الشعبي الفلسطيني ... وهي تؤكد القدرة الفذّة لمجتمعنا العربي الفلسطيني على الصمود والحيوية والنمو والتطور طالما هو محتفظ بتراثه الشعبي ، هذا التراث الذي تحاول الامبريالية والصهيونية ، متساندتين متلاحمتين ، قتله وتدميره ، انكارا لوجود شعب فلسطيني .. ولذلك فان كل احياء واثراء ونشر وتعميق وتحليل للتراث الشعبي الفلسطيني بكافة اشكاله والوانه هو دعم للثورة وتكريس لها ، كما انه اضاءة للمنافي الفلسطينية ولحمة لها .. »

— من المقدمة —

منشورات دار الآداب